آلام بيتهوفن

للدكتور فضل أبو بكر

ولد بيتهوفن بمدينة « بون » التابعة لمقاطعة « بروسيا » الشرقية بألمانيا فى السابع عشر من ديسمبر سنة ١٧٧٠ وهو — كما يعلم القارىء — ثالث الثلاثة — «موزار» و « باك » — الذين تفاخر بهم ألمانيا كما أدهشوا العالم فى فن الموسيقى وكان أبوه — كوالد « موزار » موسيقياً بارعاً ولكنه على العكس من زميله نشأ نشأة تعسة فى طفولة بائسة مشردة لقسوة والده عليه ولمباقرة ذلك الوالد للخمر وإدمانه عليها وهو ما طبع حياة الطفل بطابع التجهم والكآبة منذ الصغر مضافاً إلى ذلك حدة الطبع وسرعة الغضب رغماً عن صفاء نفسه وطيبة قلبه . وقد حكى عنه أنه بينما كان يعزف على عوده قطعة موسيقية وإذا بعنكبوت خرجت من مكمنها وتدلت من نسجها كأنما أطربتها الحانه الشجية فضربتها أمه ضربة أماتتها مما أثار نفس الابن وجعله يحطم عوده من شدة الغضب .

بدأ نبوغ بيتهوفن فى سن مبكرة كما بدأ يؤلف وينتج فى فن الموسيقى فى الثالث عشر من عمره وهو ما أثار دهشة مواطنيه .

كان « موزار » فى ذلك الحين قد بلغ الذروة فى عالم الفن وقد تعلق به بيتهوفن وأعجب بنبوغه وتفوقه فى عالم الموسيقى فلحق به فى مدينة « فينا » فى ربيع سنة ١٧٨٧ بحمل توصية من أحد الكبراء لكى يحظى بمقابلة « موزار » فكان له ما أراد ورحب الفنان الكبير بزميله الشاب الصغير وأكرم مثواه وأراد موزار أن يمتحن بيتهوفن ويتحقق بنفسه عما يذاع عنه من بوادر النبوغ فأعطاه قطعة موسيقية صعبة معقده ورجاه أن يعزفها على البيان فأبدى الشاب من الكفاءة والنبوغ ما حير «موزار» الذى لم يملك نفسه من فرط الإعجاب فصاح فيمن حوله « تأملوا هذا الشاب الصغير ! إنه سوف يترك فى الدنيا دوياً وسوف يتكلم عنه العالم أجمع » على حد قول المتنبى :

واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

أما من حيث تكوينه الجسمى فقد كان قصير القامة واسع الصدر ضخم الرأس والعنق قصيرها مما يزيد من قماءته غليظ الشفتين بارز الجبهة والحنك قصير الأنف وفى عينيه قوة معبرة وشعاع نافذ وإذا ما غضب وحدج بهما إنساناً فكأنما يتطاير منهما الشرر ويكسو رأسه شعر كثيف أسود كدجى الليل يتعذر على المشط أن يجوس خلاله أو يقوم ما أعوج من تجاعيد خصلاته المتدلية على أكتافه كأنما هى عرف الأسد .

إن ملامحه — كما يقول عنه بعض الكتاب — إن لم تنم عن وسامة وجمال فهى تعبّر عن هيبة وجلال وكأنما الشاعر يعنيه بقوله :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم

بدأ الوقر يطرق سمعه وهو فى السادس والعشرين من عمره وهو فى فجر الشباب وأوج المجد وبدأ الداء بأذنه اليسرى وبعد

يراض من جموح ، ويؤلف من شرود ؛ وكيف تعقد بينه وبين العلم صلة تحببه فيه وتصرفه عن كل ما ينافيه .

هذه النواحى جديرة بالدراسة والبحث ، والرسم والتخطيط ؛ كان على الأستاذ الشرقاوى أن يعالجها ببيانه المشرق وهدية الوضاء ؛ وإن له من تتبع سير الأمور فى الأزهر منذ حداثة سنه ، ومن اهتمامه بنهضته وإصلاحه ، ودؤوبه على الكتابة فى كل هذه الشئون ، ما يجعله أهدى سبيلا إذا بحث ، وأصدق قيلا إذا كتب ؛ إن من يدعو إلى غاية ثم لا يدل على طريقها يوقع فى حيرة واضطراب ؛ ومن السهل أن تشخص الغاية وتوضح ، وليس من السهل التعرف على أقرب الطرق الموصلة إليها ؛ فليكتب من شاء أن يكتب فى رسم السبيل وتبيين معالمها ، وليكثر من الكتابة فى ذلك ؛ فإن الطريق إذا استبانت واتضحت ، وآمن الناس بأنها توصل إلى ما تصبو إليه نفوسهم من الإصلاح المنشود ، لم تعدم سالكين ، ومن وقتئذ يبدأ الإصلاح يتحقق ؛ أما الاقتصار على ذكر الأهداف والغايات دون الإيضاح الكافى للسبل والوسائل ، فليس من شأنه أن يحقق غاية أو يوصل إلى هدف .

سليمان رشيا

المدرس فى كلية أصول الدين

عامين لحق بالمرض فضعفت حواسه السمعية وكانت صدمة عنيفة على نفسه الحساسة وجرحاً لكبريائه الشامخ وكبرياء النفس صفة تميز بها الألمانيون أكثر من غيرهم ولا سيما البروسيين وكان فى بادىء الأمر شديد الحرص على كتمان مصيبته ولم يبح بها حتى إلى أقرب الناس إليه لهذا بدأ يمعن النظر ويتفرس فى وجه محدثه مراعياً باهتمام حركات الشفاه وملامح الوجه المعبرة حتى يلم بأطراف الحديث ولكيلا يفوته شىء مما يقال وهى طريقة يستعين بها ضعيفو السمع أو من فقدوا حاسته فقداناً تاماً وهى مايسمونها فى الطب «بالقراءة على الشفاه» «Ladis — Lecture» ولكن هيهات !! فما كان مجهوده يكلل بالنجاح فى كل الأوقات ، إذ كانت تفوته بعض الكلمات فتبدو على سيماه الحيرة والارتباك ، مما يضطر محدثه لإعادة ما يقول أو الإجهار بالصوت فيزداد ارتباك بتهوفن ويحمر وجهه غضباً لأن فى ذلك ما يذكره بمصيبته ويشعره بأنها لم تعد سراً على أحد .

وفى عام سنة ١٨٠٠ اشتد داؤه وظهرت عليه بعض المضاعفات — دوى فى الأذنين لا ينقطع ليل نهار وضوضاء أشبه بأزيز النحل مع شعور بالدوار وآلام فى الأذنين عند سماع الأصوات الحادة وهى عارضة مرضية يسمونها بال « Hyperacousie » .

بيتهوفن والأطباء :

لجأ بيتهوفن إلى استشارة الأطباء بعد تردد كبير لأنه — كما أسلفنا — كان يأنف أن يعترف للناس أو حتى للأطباء بمرضه فضلا عن ضعف ثقته بالطب والأطباء وفى هذا يشبه المؤلف المسرحى الشاعر « موليير » الملقب بشكسبير فرنسا والذى كان يسخر من الأطباء ويهزأ بهم فى مسرحياته لعجز الطب عن مداواته . غير أن إلحاح إخوته جعله يقبل العلاج فاستدعى أهله الأستاذ الدكتور « شمد » وهو صديق للعائلة ومن المعجبين إلى حد كبير بفن بيتهوفن وقد بذل الأستاذ كل ما فى وسعه واستمر فى علاجه أكثر من ثلاثة أعوام ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح واستمر الداء يتطور ويستفحل . ثم تولى علاجه طبيب ثان هو « ملفاتى » وثالث هو « برتولينى » وأخيراً الأستاذ « استاندنهايم » وهو طبيب الإمبراطور الخاص وقد نصحه باستعمال بعض الأجهزة الخاصة بتضخيم الأصوات فاستعمل منها مجموعة ما زالت محفوظة فى المتحف الخاص به والذى يؤمه الزوار من عشاق فن الموسيقى من كل حدب وصوب ولكن الفائدة كانت ضئيلة ولم يطق بيتهوفن صبراً على احتمالها فنبذها جميعها إلى جنب وظل سمعه يضعف رويداً رويداً .

وأخيراً نصحه أطباؤه بمغادرة فينا — فينا الجميلة عروس الدانوب والتى أحبها كثيراً فغادرها مرغماً إلى قرية مجاورة وانقطع فيها انقطاع العابد فى محرابه والراهب فى صومعته يتحف العالم من حين لآخر بأروع ما عرف فى فن الموسيقى .

ولكن العزلة وحرمانه من مجالس الأنس وسمر الأحباب فى فينا كل ذلك زاد من أحزانه وشقاء نفسه حتى ضاق ذرعاً بالعيش واستعجل الموت وقد كتب فى ذلك عدة مذكرات منها وصيته التى تركها لشقيقيه « كارل » و « جوهان » نقتطف منها :

« ما أقسى المجتمع فى حكمه على الفرد !! إن الناس كالقاضى المستهتر الذى ليس له من ضميره رقيب ولا حسيب فهو يدين المتهم البرىء ويوقع به العقاب من غير أن يكلف نفسه مؤونة البحث والدراسة لقضيته ! إن الناس يرمونى بالصلف والترفع عن مجالسهم كما ينعتنى البعض الآخر بالشذوذ وما دروا أن قلبى منذ نعومة أظفارى مفعم بالحب والحنان وتفيض فى نفسى عاطفة البر والرفق بالضعفاء والمحرومين . وما ألحانى إلا تعبير صادق لما يختلج فى نفسى من إحساسات .

لقد مضى على أكثر من ستة أعوام وأنا أعانى من عاهتى الأمرين وتزداد حالتى المعنوية سوءاً يوماً بعد يوم كما فقدت الأمل فى استرداد سمعى رغماً عن الوعود الكاذبة التى يتمشدق بها الدجالون من الأطباء . لقد جفوت — كرها — مجالس الأحباب لأن كبريائى لا يسمح لى أن أقول لأحد من الناس إرفع صوتك وأجهر بما تقول لأنى ضعيف السمع أو عديمه !! إن العزلة تميتنى حقاً ولكن أين المفر ؟! إن سخرية الناس وشماتتهم هما على نفسى أدهى وأمر .

يا أخوى التمسا من صديقى الأستاذ « شمد » أن يطالع الناس بحقيقة عاهتى بعد موتى حتى يقفوا على حقيقة الأمر وسبب نفورى منهم وليكن لى ذلك مبرر وشفيع وأنى لآمل إلا تعاجله المنية قبلى لأنى لا أثق بغيره من الأطباء .

إني أترك لكما الثروة المتواضعة التي جمعتها بعرق جبيني فاقتسماها بينكما بالعدل كما آمل لمن يسود بينكما الحب والوفاق وأما أنت يا شقيق « كارل » فأشكر لك حسن صنيعك وعطفك عليّ كما أسألك أن تنشيء أبناءك نشأة طيبة متمسكين بالفضيلة ففي ذلك وحده النجاة كما أنها الطريق المفضي إلى السعادة ، والسعادة ليست في الثراء لأنه عرض زائل وإنما هي معنوية وليست مادية .

أشكر جميع أصدقائي ولا سيما سمو الأمير « شنوسكي » والأستاذ « شمور » كما التمس منكما أن تحتفظا بالآلات الموسيقية التي أتحفني بها سمو الأمير كذكرى نفيسة « اللهم إلا إذا أعوزكما المال ففي هذه الحالة فقط أسمح لكما ببيعها » .

أسباب مرضه :

اختلف الأطباء في تعليل الأسباب التي أودت بسمعه فبعضهم يعزوها إلى مرض الزهري كالدكتور « جاكوبسن » مثلا ولكن تشريح جثته بعد موته في السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٢٧ لم يظهر أي أعراض للزهري وبعضهم يقول إن حمى التيفويد التي أصيب بها في حداثته سببت له التهاباً في الأذن الداخلية « Ladyrinthite » غير أن هذه الدعوى ليس لها مكان من الصحة إذ أن مثل هذا الإلتهاب له عوارض لم تظهر على بيتهوفن والمتفق عليه الآن أن مرض أذنيه الذي أودى بسمعه هو ما يسمونه بال «Ots — Sclérose» لأن كل ما كان يشكو منه من عوارض وما دلت عليه نتيجة التشريح بعد الموت ولا سيما تشريح الأذن نفسها يدل على أن بيتهوفن كان مصاباً بالمرض الأذني المذكور يضاف إلى ذلك أن والده كان ضعيف السمع والوراثة تلعب دوراً هاماً في هذا النوع من الأمراض السمعية .

أثر الصمم في فن بيتهوفن :

يظن الكثير من الناس بأن حاسة السمع شيء لا عوض عنه للفنان الموسيقي وذلك أن يعزف بنفسه أو يعزف له أحد غيره ما يؤلف من قطع موسيقية فيتذوق ما بها من فن ويصلح ما بها من ضعف وهو ما حرم منه بيتهوفن مدة طويلة ولكن الواقع ينفي ذلك إلى حد كبير ولاسيما لدى فنان ملهم موهوب مثل بيتهوفن وحاسة السمع لا تلعب إلا دوراً ثانوياً في هذا الصدد وإنما العامل الأول في الإنتاج هما ذكاء القريحة وقوة الخيال وقد وهبه الله منهما قسطاً وافراً . والموسيقى فن فوق الإحساسات المادية وهي لغة الوجدان وترجمان المواطف .

إن عاهته لم تعقه عن النبوغ والوصول إلى درجة الكمال في فنه كما أن أحزانه قد صهرت نفسه وطهرتها من أدران المادة كما أرغمته أن ينزوي وينقطع لفنه ويعيش من أجله كما خلقت في نفسه « مركب نقص » دفعه إلى طلب الكمال كما تفعل مركبات النقص والعاهات في النفوس الكبيرة التي تغالط في حقائق الواقع وتتحدى الأقدار .

وقد وصف ذلك الكاتب الألماني بيوش وصفاً بليغاً قال فيه :

« أيها السارى إذا ما مررت بالقرب من دار بيتهوفن في دجى الليل فلا تلمس منك أن تسير رويداً وتقبض أنفاسك كما تهمس في أذن عشيقتك مخافة أن تزعجه ولكن مرما بدالك وأملأ الدنيا ضجيجاً وغناء بصوتك الأدمي الخشن لأن « موجات » ما تحدثه من ضوضاء لا تجد طريقها إلى أذن بيتهوفن رب الألحان وإله الفن وقد ترفعت أذناه عن سماع همس النسيم يداعب ما جف من أعشاب الحقول وهديل الحمائم وتغريد البلابل وسجع الهزار فكيف الحال بصوتك الأجش المنكر ؟ ! إن في نفسه تتفجر ينابيع الفن وتجري أنهر من اللحن المذب تروي عطاش ما جف من زرع أنفسنا فيأتي بالثمر الشهي وتجنيه جنياً هو البر والحب والجمال » .

فضل أبو بكر

عضو بعثة فاروق الأول السودانية بفرنسا

يفيد القاضي والمتقاضي والمحامي والفقيه كتاب

مبادىء في القضاء الشرعي

الأستاذ الزين القاضي

يطلب من دار الرسالة بالقاهرة

ومن الأستاذ علي عبد الله بالمنصورة

وثمنه ٢٠ قرشاً عدا البريد